فسحة للكابوس*

كان عليٌّ أيها الأصدقاء المحرَّرون أن ألوذ بالصمت في مقامٍ كهذا، لا لأنّ الكلام فَقَد جدواه بل لأنني لن أجد ما أقوله سوى البحث السقيم عن كلامٍ يقع في الإنشاء لا في الفعل، وفي المديح لا في المكابدة. كان عليَّ أن ألوذ بالصمت والدموعِ الخرساء، تماماً كما فعلتُ وأنا أراكم على شاشات التلفزة تنقسمون على أنفسكم في رحلة العودة: فيعود بعضُكُمْ عظاماً في صناديق مسمَّرةٍ تحت جنح الظلام، ويعودُ بعضُكُم الآخرُ وجوهاً مكسوَّةً بالذهول وقاماتٍ مثخنةً بالأمل. هكذا قُدِّر لكم أن تعودوا بعد كلِّ هذه السنوات على خطَّين اثنين: خطٌّ يتقدم تحت سطح الأرض ليتَّحد بالنبات ويغذِّي نُسْغَ الجذور الأم؛ وخطٌّ يتقدم فوق سطحها ليرفع منسوبَ الكرامة قليلاً الى الأعلى وليدفع هذا الشقاءَ الوطنيَّ قليلاً الى الأسفل.

ما الذي يمكن أن يضيفه الكلامُ إلى بلاغة ذلك الصمت الذي ربَّيْتموه على مدى أعوام طويلة كما تُربَّى الزهورُ في الأحواض؟ ذلك الصمتِ الذي شحذتموه كالسكّين على صخرة الصبر والانتظار لكي تَبْقروا به بطنَ الهزيمة، ولكي تقطعوا بواسطته حبلَ السُّرةِ الذي يربط بين المشنقة والعنق وبين الوردة والبركان. كيف يمكن أن أختزل بكلماتٍ منمَّقةٍ عشرَ سنواتٍ أو أكثرَ مِنْ تقوقُع الجسد على نفسه داخل زنزانةٍ لا تتعدى مساحتها الأمتارَ القليل؟ عشر سنوات تعني آلافَ الأيام وملايين الدقائق من التحديق في اللاشيء، من الحفر كالخُلْد في خرائب الروح وظلماتها الموحشة، من الإصغاء المرير الى خفقانِ القلب ورجفةِ الأحشاء وهسيسِ النجوم وزحفِ الصراصير البطيء على سطح الظلام العاري. عشر سنوات من انتظار شيءٍ يتحرك، صرخةٍ تكسر الصمت، إعلانٍ عن وفاة الأرض أو رسمِ خارطتها من جديد، بحثٍ عقيم عن معجزةٍ أو زلزال، حشرةٍ تَقْبل صداقةَ الجسد الأعزل، والتَّسلِّي بخيط من الضوء يتسلَّل من النافذة قبل أن تلتهم الظلمةُ كلَّ شيء. من هنا نستطيع أن

* ـ نص الكلمة التي القاها الشاعر شوقي بزيع في المهرجان الذي أقيم في ملعب حبيب أبي شهلا في تموز (يوليو) الماضي، احتفاءً بعودة بعض الأسرى المناضلين من سجون الاحتلال الإسرائيلي عقب عملية التبادل التي جرت مؤخّراً بين المقاومة والعدو.

نفهم البُعْدَ الرمزيَّ للزمن الذي جعل أهلَ الكهف يخرجون بعد ثلاثمائة عام ليجدوا الأرض غير الأرض، والناسَ غير الناس، والدولَ غير الدول، فيما هم يظنون في غفلتهم أنهم لم يلبثوا سوى يوم أو بعض يوم. وإذا كان أهلُ الكهف قد استعانوا على زمنهم بالغياب والسبات العميق، فأنتم على العكس من ذلك كنتم تُصغون باستمرار الى الدقات الهائلة للدقائق والثواني وتتحملون بانتظار ساعة الخروج ما لا قِبَلَ لأحد باحتماله.

* * *

ولكنْ، كم يحزنني أن أعلن أنّ الفرح الذي يغمرنا بوجودكم أيها الأصدقاء المحرَّرون هو فرح ناقص، لا لكون رفاقٍ لكم - وبينهم الأسيرةُ/الجوهرةُ سُهى بشارة* - مايزالون في قبضة العدو، بل لأنّ لبنان الذي أعطيتموه زهرةَ مستقبلكم لم يعطكم سوى شوكةِ ماضيه. ولبنان الذي أعطيتموه أعماراً غَضّةً وفتيّةً لم يعطكم سوى إعمارٍ ناقص، وأبنيةٍ صمّاءَ، وعاصمةٍ بلا قلب. والوطن الذي مَدَدْتُم أجسادَكم جسوراً بينه وبين الحرية لم يَبْنِ لكم سوى جسورٍ لا تَصِلُ طائفةً بطائفة أو مذهباً بمذهب أو حاكماً بمحكوم، إلا عبر التكاذبِ والتلاصصِ والتحاصصِ واقتسام المغانم.

وما قيمةُ وطنٍ يزرعونه بالمطارات الحديثة، والفنادقِ الفخمة، وناطحات السحاب، ثم يُلْقُون فوقَه ما يشبه القنابلَ الفراغيةَ لكي يجوِّفوه من الداخل؟ ما قيمةُ وطنٍ يستولون على مؤسساته الأهلية، وعلى نقاباته، واتحادِ عمّاله، وروابطِ أساتذته، ومكاتبِ معلّميه؛ ويتوزّعون صحافتَه، وإعلامَه، وشاشاتِه، ثم يوهموننا بأنّ تلك الجعجعةَ الفارغة والضجيجَ الكاذب هما دليلُ حيويةٍ وعافيةٍ، فيما كلُّ تلك الأصوات تبدو في الحقيقة شبيهةً بمذياعٍ يعمل في سيارةٍ تدهورت؟!

* * *

كان يجدر بي، أيها الأصدقاء المحررون، والذين ما يزالون في الأسر، أن أحتفظ بيأسي الى مناسبةٍ غيرِ هذه المناسبة، وأن أدلَّ الحضيضَ الذي نحن فيه على جباهكم التي ترتفع كالراياتِ العالية في وجه الموت. ولكنّ المسافة بين لحظةِ اعتقالكم ولحظةِ خروجكم من الأسر لم تكن سوى فسحةٍ للكابوس، ومناسبةٍ لتجديد العقد مع الطائفية التي ترقص كالعاهرة على حَبْلَيِ النُّصوص والنفوس، ثم ندفع لها الجزيةَ من لحمنا الحيِّ ومداخيلنا المتضائلة. فالسنواتُ التي قضيتموها في سجون العدو لم تكن أكثر وطأةً عليكم من السنوات التي طحنتْ أرواحَنا فيها جمهوريةُ الكسّاراتِ والجرّافاتِ والمحادل، ودولةُ المقالعِ والرَّشاوى والصناديقِ المثقوبةِ والمواكبِ الرئاسية الجرّارة. عشر سنوات ونحن نترنّح بين دولة الصفقة ودولةِ الصفعة**، بين دولةٍ تستميت في تحريم الزواج المدني وتستميت بالقَدْر نفسه في تحليل زواج المتعة بين الكرسيِّ والحاكم وبين المسؤولِ والمقاول وبين التسلُّط بالإكراه والتلزيم بالتراضي!.

كان يجدر بي، أنا الشاعرَ المتشبِّثَ حتى البلاهة بقشّةِ الرجاء وأهدابِ الحلم، أن أرفع إليكم تقريراً مفصّلاً عن مجرى دمائكم في القصيدة ومسرى غضبكم في المسرحيةِ واللوحةِ والأغنيةِ والكِتاب. ولكنّ هذه السنوات العشر كانت كافية لجعل معظم شعرائنا يبدّلون جلودَهم كالحرباء ويَسْفحون قصائدَهُم على أبواب السلاطين، ولجعلِ مغنّينا يتحوّلون إلى مهرِّجين في المرابع الليلية على إيقاع الملاعق والسكاكين والطناجر. وكانت كافيةً لتحويل كتّابنا إلى كَتَبَةٍ، ومنظِّرينا إلى حجّاب ومستشارين، ومثقّفينا إلى خدم. وفيما يبحث الآخرون عن المطلق الإنساني، فيحولون أنفسهم الى «أطباء بلا حدود» و«مراسلين بلا حدود» ومقاومين بلا حدود، نذهب نحن في الاتجاه المعاكس: فيتحول الكثيرُ من تقدميّينا السابقين ومناضلينا السّابقين الى انتهازيين بلا حدود ومدّاحين بلا حدود ومُرتدِّين بلا حدود.

* * *

أيها الأصدقاء المحررون. إنّها لمصادفةٌ رمزيةٌ أن نحتفل بتكريمكم فوق ملعب من الملاعب. فبين الوطن الزنزانة والوطن الساحة لم يبنوا لنا سوى الوطنِ الملعبِ الذي يتقاذفون فوقه الاتهاماتِ ككرة النار. كأنهم لم يتركوا لهذه الأجيال الطالعة أن تُحدِّد خيارَها بين السلطةِ الوعيدِ والمعارضةِ الوعد، بل بين زَيْدان ورونالدو***، بين رشاقة فرنسا وشَعْرِ البرازيل، ويصبح رهاننا على الأقدام لا على الرؤوس، وعلى جنوب الجسدِ لا على شماله.

ومع ذلك فثمة نقطةٌ من الفرح أَتَحْتُم لنا أن نحوّلها الى بحيرة مسقوفة بالوعود والآمال.

وكما صنعتم ملحمةَ الحرب على الأرض، فقد صنعتم بموازاتها ملحمةَ الحب وأسطورته المتجددة. والصديق مرسيل خليفة الذي غنّى قبل عشرين عاماً لـ «أجمل الأمهات التي انتظرتْ ابنَها وعاد مستشهداً» حريٌّ به اليومَ أن يغنّي لـ «ابتسام نجدي»، أجملِ العاشقات التي انتظرتْ حبيبَها عشرَ سنواتٍ كاملةً ليعود هذه المرةَ لا مستشهداً بل شاهداً على الحب المضفور بالكرامة.

لكم وحدكم، لن تبقّى قابضاً كالجمر على سلاحِهِ وعقيدتِهِ ورجائه، سوف نكتب القصيدةَ ونرفع النشيد.

شوقي بزيع

* - مناضلةٌ ومعلّمةٌ أطلقتِ النّارَ على العميل انطوان لحد، قائدِ ما يُسَمّى بـ «جيش لبنان الجنوبي». (الآداب)

** - إشارةٌ إلى الصفعة التي وجّهها مؤخّراً رئيسُ الجمهورية اللبنانية الى رئيس تحرير مجلة **الشراع** حسن صبرا في إحدى المناسبات العامّة. (الآداب)

*** - لاعبان اشتهرا بمهاراتهما الفرديّة في لعبة كرة القدم، ولاسيّما خلال مباريات كاس العالم الأخيرة. (الآداب)